خداع العين

طالما اعتقد الانسان انهُ اذا خَدَعَهُ كل بني البشر لا تخدعهُ عيناهُ وعليهِ قولهم نظرتهُ بعيني اذا اريد تأكيد النظر ولكن لدى الفحص المدقق وُجِدَت العين خدّاعة تري الانسان ما يُرَى وتلبّس عليهِ الامور فنتج عن خداعها حكايات وخرافات يطول شرحها غشّت البشر ولم تزل تغشهم. وقد قصدنا في هذه الرسالة ان نشرح شيئًا من خداع العين سواء فعلتهُ هي او مُوِّه عليها بحيل البشر كما في ما يدعونهُ سحرًا او ما ينسبونهُ الى قوة فائقة الطبيعة حال كونهِ طبيعيًا مبنيًا على احكام الكون التي لا تتغير

قلنا في الجزء السابق اننا ندرك الصور المرسومة على الشبكية في مؤخر العين سواء كانت منقولة عن الاشباح او عن صورها ولكن قد يحدث ان يطرأ على عين الانسان مرض او يصيب دماغهُ خللٌ او يحتال عليهِ اهل العلم والدهاء فيرى الاشباح على غير ما هي عليهِ او يرى اشباحًا لا وجود لها. وعليهِ يقسم خداع العين الى ثلاثة اقسام خداع بصري وخداع عقلي وخداع عملي ويوجد نوع رابع ناتج عن بعض احكام النور ممّا لم يعتد الانسان على رؤيتهِ سميناهُ خداعًا طبيعيًا. ولنلتفت الى كلٍّ من هذه الاقسام على حدتهِ

اذا نظرتَ الى شجرة انطبعت صورتها في كلتا عينيك فاذا احكمتها حتى تحصل المطابقة بين موقع الصورة المرسومة في العين الواحدة والصورة المرسومة في العين الاخرى رأيت الشجرة مفردة والاّ رأيتها مزدوجة. واذا اصاب الانسان خلل حتى لا يمكنهُ توقيع عينيهِ على جهة واحدة في وقت واحد رأى كل شيء شيئين وذلك هو الحوَل. ويمكنك ان تحقق ذلك فعلاً بان تضغط احدى عينيك الى جهة تخالف اتجاه العين الاخرى وتنظر حينئذٍ الى مصباح فتراهُ مصباحين اي ترى مصباحًا في كلٍّ من العينين. وقد يحدث في العين مرض حتى ينطبع فيها للشيء الواحد صورتان فاكثر ولا سيما اذا كان الشيء بعيدًا كالهلال ونحوهِ وكثيرون يرون الهلال اهلة. وقد يحدث فيها مرض يجعلها ترى من الاشباح نصفها وذلك نادر وتعليلهُ صعب. قال ولستون البصري الشهير انهُ اصيب مرة بهذا المرض فكان يرى نصف الاشباح الايسر فقط ثم شفي وبعد عشرين سنة راجعهُ المرض فكان يرى النصف الايمن فقط. وحكى برثولين عن امرأة كانت ترى من الاشباح نصفها الاعلى فقط. وكثيرًا ما يصيب العين مرض يمنعها عن رؤية بعض الالوان فقد حكي عن اناس كثيرين انهم لا يميزون بين الاحمر والاخضر بل يرون لهما لونًا واحدًا وعن غيرهم انهم لا يرون من كل الالوان الاّ ثلاثة او اثنين وذكر بعضهم خياطًا رفع رداء اسود برقعة حمراء قرمزية حاسبًا ان لهما لونًا واحدًا. ويحكى عن الفيلسوف الشهير دلتن انهُ لم يكن يرى في قوس قزح الاّ ثلاثة الوان وهي الازرق والاصفر والبنفسجي مع ان الوانها سبعة كما لا يخفى. وفي

ذات يوم سقط منهُ قضيب من شمع احمر بين اعشاب خضراء فلم يجدهُ بينها الاَّ بعد تفتيش طويل لانهُ لم يكن يميز بين الاخضر والاحمر. قال العلامة ليبك النهير انهُ فحص اربعين ولدًا في مدرسة برلين فوجد خمسةً منهم لا يميزون بعض الالوان من بعضها الآخر وهذا الداء وراثي على الاكثر ويغلب وقوعهُ في الرجال اكثر منهُ في النساء واكثر المصابين بهِ هم من ذوي البصر الحاد ولضيق المقام نكتفي بهذا القدر من الخداع البصري ونلتفت الى الخداع العقلي

اذا خدعتنا الحواس الظاهرة استعنَّا عليها بالحواس الباطنة اي بقوى العقل ولكن قد تخدع هذه ايضًا فتخدع معها الحواس الظاهرة وبيت صاحبها خادعًا مخدوعًا . والحاسَّة التي تُخدَع كثيرًا فتخدع معها البصر هي المخيلة فانهُ لا يوجد احد لا يتوهم انهُ يرى اشياء لا وجود لها فان كان مالكًا صحة العقلية والجسدية طرد الاوهام او استدلَّ على بطلانها بادلة عقلية وحسية واما اذا اصاب العقل خلل او سكنت بعض قواهُ كما يحدث في الجنون والنوم والسكر او اذا ضعف بعض الحواس لمرض او لسبب خارجي حتى لم يعد الانسان قادرًا على التمييز بين الحقيقة والوهم رأى كل ما تخيلهُ لهُ المخيلة كانهُ موجود واكثر ما يحدث ذلك في الاحلام التي نرى فيها اوهامًا فنظنها حقائق او في الظلام الذي يرى فيهِ الانسان حجرًا قائمًا فيظنهُ انسانًا لضعف النور ثم يغلب عليهِ الوهم فيرى لهُ راسًا ويدين ورجلين او يرى عمودًا فيتوهمهُ ماردًا وكلما اقترب اليهِ رآهُ يسير نحوهُ ومن حوادث مثل هذه انت الخرافات الكثيرة التي تناولتها الشعوب عن الجن والعفاريت ونحوها. اخبرنا جنديٌّ قال كنت ساريًا ذات ليلة في ارض موحشة حاملاً مكاتيب الى ساحة الحرب فحدث انني رأيت في اثناء الطريق شبحًا قام عن الارض وارتفع ثم ازداد ارتفاعًا الى ان اتصل من الارض الى السماء فخطر في بالي حينئذٍ ما كنت اسمعهُ عن المردة والعفاريت واخذت بندقيتي ورميت الشبح الواقف امامي بالرصاص فوقع من ساعتهِ على الارض فهرعت اليهِ واذا هو تيس من المعزى كان متعرشًا على غصن شجرة من الخرنوب. وتعليل ذلك ان الوهم اراهُ اياهُ طويلاً بهذا المقدار ولقلة النور لم يقدر على افساد وهمهِ . وقس عليهِ خرافات لا تُعد ولا تحصى

حكي عن امرأة اصيبت بمرض اعتلهُ حول في احدى عينيها وكانت تخيط ثيابًا وتعيش باجرة ما تخيطهُ فصارت ترى الشيَّ الواحد شيئين. ومن عادة المصابين بهذا المرض ان يستعملوا قواهم العقلية فيصلحون خطأ عيونهم الاَّ ان مخيلة هذه المرأة صوَّرت لها ان العناية الالهية منحتها يدين فوق يديها لتقدر على تحصيل معيشتها بسهولة فصارت تعتقد ان لها اربع ايدٍ ودامت على اعتقادها الى ان ماتت. وحكي عن رجل آخر اصيب بمرض دماغي فصار يرى بعينيهِ اشخاصًا من معارفهِ واقفين امامهُ ولو كان منفردًا. وروي عن مصور انكليزي انهُ كان يصور بيدهِ اكثر من ثلاث مئة صورة كل سنة وذلك انهُ كان ينظر الى الشخص الذي يريد تصويرهُ بكتفي بنظرهِ مرةً واحدةً فيصرفهُ ثم عند ما يريد ان يصنع الصورة

ويتفنها يتوهم ان ذلك الشخص جالس امامهُ فيراهُ بعينهِ فينقل الصورة عنهُ. وبما انهُ لم يكن يُتعب الناس بالقعود المستطيل حسب عادة المصورين الذين يستدعون الشخص للجلوس امامهم اسبوعًا فاكثر تقاطر اليهِ الناس فراجت بضاعتهُ وامتد صيتهُ وعلى توالي الايام لم يعد يميز بين الحقيقة والوهم فجنّ واقام في بيمارستان المجانين ثلاثين سنة ثم شفي ورجع الى صناعتهِ ولكن لم يعد يستطيع على استحضار الاشخاص كما كان من قبل. وحكى وكن عن رجل مشهور لهُ بالعقل والعلم انهُ كان يستحضر صورتهُ حينما يريد ويوقفها امامهُ ويضحك ملئًا عند رؤيتهِ اياها فتضحك لضحكهِ وكان ذلك اولاً لمجرد المزاح ثم صار لا يقدر على ازالتها من امام عينيهِ واخيرًا اعتقد ان لهُ تابعًا يترصدهُ حيثما ذهب ودام الامر بهِ على هذهِ الحال الى ان سمّ الحياة فقتل نفسهُ بيدهِ. ومن قبيل ذلك ما حكاهُ الجنرال راب قال دخلت مخدع الامبراطور نابوليون سنة ١٨٠٦ بعد رجوعي من حصار دنتزيك فرأيتهُ شاخص العينين عديم الحركة فصحتُ صوتًا لكي انبههُ فالتفت اليَّ وقبض يدي واشار الى المكان الذي كان ناظرًا اليهِ وقال لي أ لا تراهُ. فلم اعلم باذا اجيبهُ فكرَّر عليَّ السؤال فقلت اني لا ارى شيئًا فقال أ لا ترى شيئًا أ لا ترى نجمي متلألئًا امام عينيك. ثم قال لي ان هذا النجم رافقني في كل حروبي العظيمة وليست امرٌ الاَّ اذا نظرت اليهِ

ومن الناس من يفقد بصرهُ ولا يزال عرضة لهذه المناظر وذلك دليل على انهُ لا وجود لها في الخارج. يحكى عن انسان قارب الثمانين وكفَّ بصرهُ انهُ كان كلما جلس على المائدة يرى نفرًا من اصحابهِ الذين ماتوا منذ زمان طويل جالسين حولهُ ولابسين اللباس الذي كان مستعملاً قبل ذلك الوقت بخمسين سنة وحكى الدكتور دوار عن ضرير كان كلما سار في الشوارع يرى عجوزًا قصيرة القامة تخمع امامهُ

ويحدث كثيرًا ان يرى الانسان اشباحًا وهمية لسبب خوف او تذكر امر فظيع جرى منهُ من ذلك ما قيل عن ملك انهُ قتل واحدًا من الفضلاء ظلمًا ثم ندم على ما فرط منهُ اشد الندم وفي ذات يوم وُضعت امامهُ سمكة لم يرَ مثلها من قبل فقال انهُ رأى في راسها مشابهة كلية لراس الذي قتلهُ وللحال اصابتهُ ملخوليا لازمتهُ باقي حياتهِ

ومن اعجب ما جاء التاريخ بذكرهِ ما رواهُ السر ولتر سكوت الاسكتلندي في كتابهِ الشياطين والسحر قال ان طبيبًا مشهودًا لهُ بالعلم والفضل دُعي الى مريض مجهول مرضهُ وكان المريض من رجال السياسة المشهورين بالاستقامة والدراية فغلب عليهِ غم مفرط احرمهُ لذة العيش وانهك صحتهُ فلازم الفراش واصرَّ على كتم سببهِ حتى عجز الاطباء عن معرفتهِ. فاخذ هذا الطبيب يفحص بين اهل المريض واقاربهِ عساهُ ان يطلع على علة المرض فذهب فحصهُ سدًى ولم يكن فيهم احد يعرفها. ولم يكن عمل لتهتكهِ بالعشق لكبر سنهِ ولا بالحزن على شرٍّ ارتكبهُ لما عهد من استقامتهِ فرجع الطبيب اليهِ والحَّ عليهِ حتى

يعلن له باطن امره وما زال به حتى كاشفه بما كتمه فقال قد تقرّر في عقلي انني وصلت الى حافة القبر بسبب مرض عضال نشف مجاري حياتي . ألا يخطر ببالك المرض الذي مات به دوك اوليفرز في اسبانيا . قال الطبيب انه مات بسبب ما توهمه من وجود شخص امامه دائمًا . فقال اصبت وهذه هي علتي وستكون سببًا لانقضاء حياتي وقد ابتدأ معي هذا المرض منذ ثلاث سنوات وكنت في اول ما ارى هرة كبيرة تتردد عليّ حينًا بعد حين ولم اكن اعرف كيف تاتي ولا كيف تمضي ثم داخلني ظن انها وهمية يريني اياها خيال في عيني او في مخيلتي واذ لم اكن اكره الهرر لم استنكف من رؤيتها . وبعد مضي عدة اشهر غابت عني بالكلية واتى مكانها شخص رجل من الامراء متوشحًا بثياب الامارة المطرزة ومتقلدًا سيفًا على فخذه . وكان يقف تجاهي في بيتي ويتبعني حيثما توجهت ماشيًا امامي . واذ كنت متاكدًا انه لا يراه احد غيري لم انزعج من حضوره ولكن داخلني من ذلك ظنّ بانحراف صحتي وبعد اشهر غاب وحضر مكانه خيال مخيف هائل الصورة قبيح المنظر وهو هيكل عظام مثل الهيكل الذي تشخص به صورة الموت فصار يتبعني حيثما اذهب ويجلس معي اينما اجلس فاخذت اناجي نفسي قائلاً انه وهم فيجب ان لا اعتقد بوجوده حقيقةً ولا ارتاع منه واستعملت كل برهان عليّ ودبني لاقنع عقلي بذلك فلم يقتنع والآن انا على ما تراني غير قادر ان اتحرر من هذا الوهم الذي غلب على قوى عقلي وسيجدرني الى القبر عن قريب

قال الطبيب فانّا هذا الخيال امام عينيك دائمًا . قال نعم لسوء حظي . فقال وابن تراه الآن . قال عند رجليّ . فقال ان كنت تعتقد انه خيال وهي فهل تستطيع ان تقوم من فراشك وتجلس في المكان الذي تراه الآن فيه . فتنهد المريض وانفض راسه . فقام الطبيب ووضع كرسيه بازاء رجلي المريض والتفت اليه وقال هل تراه الآن . قال لا اراه كلّه لانك حجزت بيني وبينه وانما ارى جهته توصوص من فوق كتفك . فارتاع الطبيب وقام لساعته من ذلك المكان . ثم استعمل له علاجات كثيرة ولكنها ذهبت سدًى ومات ذلك المسكين ما قاسى من الاوهام . وفي سورية الآن رجل من اعظم رجالها علمًا وقدرًا مصاب بداء كهذا . واحدنا يعرف عجوزًا كانت ترى في السنة الاخيرة من حياتها رجالاً معهم امرأة يسلخون جلدها وهي تستغيث ولا مغيث . ولضيق المقام وخوف الملل ندع الكلام في الخداع العملي والطبيعي الى جزء آخر

الندى

كان القدماء يزعمون ان للندى خواص كثيرة عجيبة منها ان الاستحمام به يزيد الجمال جدًا فكانوا يلتقطونه على جزز من الصوف يفرشونها ليلاً للاغتسال به وللكذبين في تجاربهم الخرافية . قال اورنس وهو من فلاسفة الاجيال الوسطى ان الندى اثيري فاذا ملأ نامنة بيضة من بيض القبرة طارت الى الجو عند شروق الشمس . وكذلك بيضة الاوز اذا ملئت منه